

الفصل الثالث: دخول الحقل الميداني

يستعرض هذا الفصل الأمور المتعلقة بالاعداد للبحث، ومن أهمها المسائل العملية الخاصة بدخول الحقل الميداني وموقع الدراسة. كما يسعى هذا الفصل إلى ارشاد الباحث عن كيفية بناء قنوات الاتصال "بحراس الموقع" *gate-keepers* أى الأشخاص ذوى النفوذ والمعنيين بشكل ما بالمجتمع المحلي، لتسهيل الدخول الى الموقع. ويستعين هذا الفصل بأمثلة تتعلق بدخول موقع الدراسة مستفاه من الادبيات وتجارب الحقل الميداني، يمكن أن تساعد الباحث فى مرحلة الأعداد.

يعتبر الاعداد خطوة هامة لنجاح العمل الميداني وهو يشمل الاعداد العلمى لتصميم البحث، بالإضافة إلى الاعداد الاجتماعى للدخول إلى مجتمع البحث وإمكانية الوصول إلى المبحوثين (Patton 2002). وقد لا تجد صعوبة فى بعض الأحيان فى دخول موقع البحث، إلا أنه يجب عليك الأخذ فى الاعتبار أنه ليس من الضرورى أن يكون كافة المشاركين راغبين فى التحدث معك أو أن تكون قادراً على ملاحظة كل ما يهملك فى السياق البحثى لسبب أو لآخر. لذا لابد من أن تجد وسيلة لتوليد وإدارة المعلومات التى تحتاجها حتى بعد أن تضمن دخول الحقل الميداني. فدخول الحقل يصبح عملية مستمرة من التفاوض بين الباحث والأشخاص المعنيين من ذوى النفوذ بالمجتمع، ليس فقط للدخول المادى إلى المكان فحسب، ولكن أيضاً للحصول على المعلومات من المشاركين فى الدراسة (Hammersley and Atkinson, 1983). وعادة ما يكون لقاء الأشخاص المعنيين بمجتمع الدراسة الذين يسيطرون عليه، خطوة هامة يجب أن يتخذها الباحث للتفاوض حول دخول الموقع (Lewis, 2003) فى (Ritchie and Lewis 2003). ومن شأن هؤلاء الأشخاص أن يضيفوا مصداقية إلى المشروع عن طريق توفير امكانية الاتصال بالمجموعات الأكثر تعرضاً للمخاطر أو المجموعات المهمشة (Green and Kreuter, 1999). كما أن هناك سبب آخر لآشراك هؤلاء الأشخاص وهو أنهم قد يتمتعون بموقع قوة، بحيث يصبح بإمكانهم السماح للآخرين أو منعهم من دخول الموقع لهدف إجراء المقابلات (Miller and Bell 2002) على سبيل المثال، يتطلب من الباحثين فى مصر الحصول على إذن من الحكومة لدخول المجتمع المحلى محل اهتمامهم، وبدون هذا الإذن، يصبح دخول الموقع أمراً صعباً. وفى بعض الأحيان، يتم تصوير عملية التفاوض تلك على أنها خالية من المتاعب (Robson, 1993) فإذا كنت ترغب فى مقابلة

أشخاص في أماكن عامة مثل المقهى أو الشاطئ أو الشارع، فقد لا يشعر بك أحد ولن تكون بحاجة إلى إذن رسمي للتحديث مع الآخرين (Hammersley and Atkinson, 1983)

يقدم Lewis (2003) قائمة ملخصة للنبود التي يجب أن تستوفيها للحصول على موافقة الأشخاص ذوي النفوذ، كأشارة إلى اهتمامك بالتنظيم الاجتماعي أو المؤسسي الذي سوف تجرى به الدراسة. يجب أن تكون المعلومات الخاصة بأهداف الدراسة أو الغرض منها واختيار الموقع واضحة ومرنة بشكل يتلاءم و الموقع. وعلى الباحثين أن يتصفوا بالتفتح و الصدق بحيث يوفرؤا كافة المعلومات عن حجم العينة وعملية إجراء المقابلة وعدد الزيارات المتصورة وكيفية استخدامهم لنتائج البحث. وعلى مدى فترة إجراء الدراسة يجب أن يسمح الباحثون لأعضاء المجتمع المحلي بالتعبير عن مخاوفهم، وأن يساعدهم على التغلب عليها. وحتى يتم تفادي الفجوات وسوء الفهم، يوصى بإيجاد نقطة اتصال واحدة للتعريف بنتائج البحث وتوزيع صور من التقارير.

كذلك، نذكر الباحثين بجزء هام من العمل الميداني وهو المسائل الاخلاقية عند التعامل مع المشاركين. فالحفاظ على اخلاقيات العمل الميداني جزء لا يتجزأ من الدراسة الكيفية. فالعمل الميداني وهو النشاط المركزي للبحث الكيفي، و يعنى اقامة علاقات مباشرة وخاصة بالأشخاص محل الدراسة فى بيئتهم الخاصة، وهو أمر يتطلب تعاطفا مع الآخرين (Patton 2002) . وتجادل De Laine بأن الفجوة بين الباحث والمشارك فى الدراسة يجب أن تزد، كما يجب أن يكون هناك تشاركا بين الوسائل والتحليل والتفسير وكتابة النتائج من جهة، و بين العلاقات الاجتماعية من جهة أخرى. وتتابع De Laine نقاشها عن اخلاقيات العلاقات بين الباحث والمشاركين التى [تتضمن مآزق اخلاقية، وهى من المواقف التى ينفرد بها البحث الكيفى بسبب الدور الاجتماعى الذى يلعبه الباحث. وفيما تعنى الممارسة الاخلاقية التقليدية اتخاذ موقف موضوعى لحماية المبحوثين من أى ضرر (Mann 1999) -

New Ethics for the Public's Health، يؤكد Kellehear (1993) أن القواعد الاخلاقية يجب أن تشمل اتباع سلوك مسئول اجتماعياً. كما يرى Hammersley (1999) فى Ethics in caualitative Keresearch, P. 16 أن القواعد الاخلاقية هى الأساس المنطقي للبحث والنهوض بالعدالة الاجتماعية. إلا أن روح الثقافة ethos الجديدة الخاصة بالعمل الميداني الذى يركز على تقليل المسافة بين الباحث والمبحوث، لم يتم تقنينها بعد (De Laine 2002) .

ولذلك، يتطلب الأمر أن يستمر الباحثون في تنبؤ السلوك غير الاخلاقي الذي قد يخرج منهم في الحقل الميداني.

"حراس الموقع": الأدوار والنفوذ:

"حراس الموقع" هم الأفراد أو المجموعات التي تتبؤ موقعاً هاماً يؤهلهم بالسماح أو بمنع دخول الآخرين بهدف إجراء المقابلات، ولكنهم لا يشاركون بالضرورة في الدراسة. ويلعب هؤلاء الأفراد دورهم كحراس للموقع داخل اطار المجتمع المحلي، اما عن طريق مواقعهم الرسمية كمختارون (أو عمد) أو مدراء للمدارس، أو من خلال موقعهم غير الرسمي الذي يقر ويعترف به المجتمع المحلي. ويمكن اكتساب المصداقية غير الرسمية من خلال الصلات التاريخية مع الأقارب و الأنساب، أو المصداقية الاجتماعية كأن يكون صاحب دكان أو زعيم أو شخص معروف بقدرته على اتخاذ القرارات. ففي ضاحية جنوبية ببيروت، على سبيل المثال ، كانت موقعاً لبحث أجريناه وشمل إجراء مقابلات مع بعض المشاركين عن العوامل التي تؤثر في حياتهم اليومية، كان أعضاء المجتمع يلجأون إلى شخص وسيط بينهم، وهو غالباً من الأشخاص الأكبر سناً، يعتقدون أن له خبرة وتجارب طويلة في حل الخلافات العائلية إذا طرأت، وهو ما أضفى عليه مصداقية غير رسمية وثقة في قدراته على اتخاذ القرار.

وقد يلعب الأشخاص ذوو النفوذ أدواراً داعمة للبحث، أو مساهمة في أداء خدمات للنهوض بالصحة، إذ يثق الناس في قدرتهم كمصادر للإرشاد والمعلومات للمجموعات متعددة اللغات، وبالتالي في أهمية وجودهم للوصول إلى المجتمعات حيث الأفراد وثيقو الصلة بعضهم ببعض. فهؤلاء يضيفون مصداقية للمشروع، ويضحون حلقات وصل بالمجموعات المهمشة والأكثر عرضة للمخاطر. كما يمكن الاعتماد على حراس الموقع في تعريف الآباء والأمهات بمبادئ رعاية صحة الطفل، حين يدور الحديث حول برامج النهوض بالصحة.

وقد تطرأ مواقف اشكالية يتدخل فيها حراس الموقع لتنفيذ جدول الأعمال الخاص بهم، أو الضغط على الآخرين لإملاء رأيهم الشخصي في أمور مختلفة. وفي أحيان كثيرة، يرغب هؤلاء الأشخاص في رسم صورتهم الخاصة عن الحقيقة بهدف الحفاظ على مصالحهم أو الترويج لصورة طيبة عنهم. (Hammersley Atkinson, 1983) . فعلى سبيل المثال، في سياق مشروع

عن الصحة الحضريّة يتناول القوى الهيكلية التي تؤثر في حياة الناس، توصلنا إلى وجهات نظر مختلفة، فيما يتعلق بالدور الذي تلعبه البلدية في المنطقة. فالبلدية، من وجهة نظرها، ترى أن الحي قد حصل على الخدمات التي كان يحتاج إليها وهو ما عارضه سكان المنطقة الذين رأوا أن البلدية قد أهملت الحي بمعنى أنها لم تهتم بجمع القمامة أو رصف الطرق إلخ....

وصرح أحد المشاركين المصريين حين سؤل عن التحديات التي واجهته أثناء إجراء بحثه الكيفي أن "على المرء أن يشارك فيما يشبه الحيل السياسية لتحقيق ما يريد" فقد يصبح من المتعين عليك، على سبيل المثال، أن تبرر مطالب أعضاء المجلس الشعبي المحلي، أو أن تقبل أن توجه بعض الخدمات إلى مجتمعات بعينها ليست في حاجة إليها، كما يحدث أحيانا في المجتمعات القبلية، للحصول على الخدمات وتوفيرها لمن يحتاجها. ومن شأن مثل هذه الأحداث أن تعوق دخول الآخرين إلى موقع الدراسة، كما أنها قد تمكن حراس الموقع من لعب دورٍ معرقل، من خلال اعاقه المحاولات التي تسعى إلى تغيير هياكل القوى، للحفاظ على سلطتهم تجاه الآخرين. وبنقاش Milles و Belt على سبيل المثال، كيف يفرض حراس الموقع مراقبة غير رسمية على الأفراد المؤهلين للاشتراك في الدراسة. ففي دراسة لتقييم علاج الرجال المؤذيين جسديا abusive، لعب الرجال أنفسهم دور المراقبين، ورفضوا دخول شريكاتهم من النساء لإجراء المقابلة معهن. وفي دراسة أخرى تهدف إلى التعرف على تجارب النساء من بنجلاديش مع خدمات الولادة في إنجلترا، لعبت سيدة من بنجلاديش كانت تعمل مساعدة في فصول تعليم اللغات دورا هاما كنقطة دخول إلى المبحوثين.

وفي العالم العربي، وفي لبنان بشكل خاص، عادة ما يلعب الزعماء الدينيون والمختارون والزعماء السياسيين ذوو النفوذ وزعماء الأحزاب السياسية دور حراس المجتمع المحلي. ففي ضاحية تقع جنوب العاصمة بيروت نشط حزبان سياسيان في المجتمع المحلي وتفوق أحدهما على الآخر، بحيث تمكنا نحن كفريق بحث من دخول المجتمع المحلي عن طريق إقامة صلات مع أحد حراس المجتمع المحلي من ذوى النفوذ الذي كان منتمياً إلى الحزب الأكثر هيمنة. وفي مصر، يلعب المسئول عن القرية بالعمدة، وهو عادة ما يكون شخص قوى النفوذ، يعرف خبايا الأمور، ولديه سلطة السماح للباحثين المصريين بدخول المواقع المختلفة وتسهيل إقامة العلاقات مع آخرين عند استشارته.

يتجه المتحدثون بأسم المجتمعات المحلية وحمايتها إلى توفير الخدمات للتابعين لهم. فقد أنشأ القادة السياسيون عدة جمعيات غير حكومية في لبنان لتقديم الخدمات للمجموعات الطائفية أو السياسية التابعة لهم وكسب الشعبية من خلال تنفيذ مشروعات الرفاهية الاجتماعية بمعرفة منظماتهم أثناء وفي أعقاب الحرب الأهلية (1975-1990). ويستطيع هؤلاء القادة أن يضيفوا الشرعية على دورهم كممثلين لمجتمعاتهم الدينية وعائلاتهم، إذ يسيطرون سلطاتهم على تلك المجتمعات عن طريق التحكم في القرارات التي تؤثر في أوضاعها، خاصة إذا كانوا يتمتعون بمناصب لها نفوذ. وقد يصادف الباحث بعض الأشكال من الزعامات غير الرسمية، كما حدث في إحدى ضواحي بيروت الجنوبية، حيث شكّلت بعض اللجان التي كانت مسؤولة عن توفير خدمات البنية الأساسية للمجتمعات المحلية، مثل رصف الطرق وتجديد نظام الصرف.

1. الأمور الخاصة بدخول مواقع البحث وبناء علاقات الألفة

من أهم ما يشغل بال الباحثين هو كيف يمكن لهم دخول موقع البحث والتحدث مع المشاركين بأنسب شكل ممكن على ألا يتعارض ذلك مع مبادئهم الأخلاقية، بما في ذلك القواعد الأخلاقية لإجراء البحوث.

وقد يمثل دخول الحقل الميداني تحدياً في حد ذاته، خاصة إذا لم يكن للباحث صلات أو شبكات توجهه نحو مشاركين آخرين (مثال). و حتى تقل التحديات التي يمكن مصادفتها، عادة ما يبدأ الباحثون بالاتصال بالأشخاص الرئيسيين ممن لديهم معلومات ويعتبرون حراساً للمجتمع المحلي.

ففي دراسة عن العوامل التي تؤثر في حياة الشباب، حرص فريق البحث على الوصول إلى فتيات في سن المراهقة. وكان أفضل طريق هو الوصول إليهن من خلال المنظمات المحلية التي تعمل مع المواطنين على مستوى القاعدة. ونجح فريق البحث في الاتصال بالمسئولة عن إحدى منظمات الشباب المعرضة لمخاطر الدعارة، التي تفضلت بتنظيم لقاء غير رسمي لنا معهن. وفي اليوم المحدد للقاء، مهدت لنا الأخصائيات الاجتماعية الطريق لإجراء الحديث، كما اخترنا بعض الأنشطة " للتسخين" للقاء وتشجيع الفتيات على الحديث. وانتهى اللقاء بأن رقصنا معاً : أعضاء فريق البحث والفتيات.

وفي سياق دراسة عن الصحة الحضرية أجرتها الجامعة الأميركية ببيروت، نجحنا في زيارة بعض المنازل بمساعدة المسئولة عن مركز للحالة معروف بنشاطه الواسع. ويقدم المركز خدماته

للنساء التي يتعرضن للعنف المنزلي والمراهقات المتسربات من المدارس، ضمن حالات أخرى عديدة. ورافقنا المسؤولة في الزيارات المنزلية للأشخاص المترددين على المركز لالتماس المساعدة، كما ساعدتنا مسؤولة أخرى عن منظمة للشابات المعرضات لمخاطر الدعارة في إجراء مقابلات مع ضحايا الدعارة بمركز لاعادة التأهيل يقع بالقرب من منطقة الدراسة.

ويعد التعرف على موقع البحث أو مجتمع الدراسة خطوة أساسية نحو إيجاد وسائل ملائمة لدخول موقع البحث. وان لم تكن على معرفة بالموقع، عليك أن تسأل آخرين ممن هم على معرفة أفضل به (Hammersley and Atkinson, 1983).

ونورد في هذا السياق مثالا على ذلك. نجحت الاتصالات التي أجراها فريق البحث مع باحثين آخرين سبق لهم العمل بنفس موقع الدراسة، في تسهيل دخول فريق البحث إلى معسكر اللاجئين الفلسطينيين وهو أمر كان يصعب الاعداد له بدون مساعدتهم.

كذلك تصبح عملية ولوج المجتمع المحلي أمراً حيويّاً حين يكون موضوع البحث من الموضوعات التي تتسم بالحساسية مثل العنف المنزلي أو العنف في الشارع. ففي مشروع عن العنف المنزلي بقرية مصرية، وجدت احدى الباحثات المصريات صعوبة في الوصول إلى النساء للحدّث عن خبراتهن فاضطرت للجوء إلى العمدة وكان يمت لها بصلة قرابية، فأحالها إلى بعض النساء ، كما قامت أيضا بالاتصال بمؤسسة تعمل في مجال الحد من العنف المنزلي، لمساعدتها في الاتصال بالمزيد من النساء.

وفي محاولة الوصول إلى موقع البحث، قد يعوق مهمتك بعض المعلومات الخاصة عن خلفيتك، مثل الجنسية أو الدين أو بعض خصائص المشاركين في الدراسة (أقارب/غير أقارب). ففي احدى الدراسات التي اجرتها...وكانت تهدف إلىمصرى) . وعلى الرغم من نجاحها في بناء علاقات أليفة مع أقاربها، وكانت تعتبر نفسها مصرية من داخل المجتمع تسعى إلى دراسة مجتمعها وبلدها، لم يكن سلوكها دائما منسجما مع توقعات المبحوثين. فنظراً مثلاً لأهمية الدين في سياق مجتمع الدراسة ، كانت الباحثة تلام لأنها لا تصوم و لاتصلى مثل أفراد المجتمع. وحيث أنه كان عليها أن تعمل بصفة وثيقة مع أفراد اسرتها المباشرة، أصبحت الحدود بين مفهومي المجال

الخاص والمجال العام غير واضحة، فتدخل أفراد اسرتها في حياتها الشخصية. كذلك أثرت اقامتها الطويلة في الولايات المتحدة على الدراسة التي كانت تجريها، اذ وجدت بعض الصعوبات في فهم اللغة العربية التي يتحدث بها أقاربها والمصريون بصفة عامة (Sherif 2001). وفي الجزء التالي نستعرض الوسائل الثلاث الأكثر تفضيلاً لجمع البيانات: الملاحظة والمقابلات الشخصية المتعمقة ومناقشات المجموعات البؤرية.